

## دور البريد العسكري الأيوبي في الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام (570 - 589 هـ / 1174 - 1193 م)

الأستاذ: حمزة محمد البكوش\*

### مقدمة:

تناول البحث دور البريد العسكري الأيوبي في الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام أثناء سلطنة صلاح الدين لهذه البلاد، إذ وظف البريد العسكري خلالها في خدمة حركة الجهاد ضد المحتل الصليبي، فكان له الدور الكبير في معرفة نواديهم وتحركاتهم وتتبع مجريات الأمور وتقفي الأخبار ونقلها بالسرعة المطلوبة.

وقد اختيرت هذه الفترة التاريخية المهمة في تاريخ الدولة الإسلامية لتكون موضوعاً للدراسة: لأنها تعد فترة حاسمة في تاريخ بلاد الشام بصفة خاصة والدولة الإسلامية بعامة، إذ كانت عقب سقوط الخلافة العباسية الفاطمية ..، وقيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، وتوحيد القوى الإسلامية في المنطقة؛ ليقود هذه المرحلة صلاح الدين الأيوبي؛ فكان حكمه بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدتها العالم في العصور الوسطى، كما شكلت حداً تراجعاً عنده المد الصليبي باتجاه المشرق الإسلامي، وبداية النهاية له.

بمجيء العباسيين للحكم سنة (132هـ / 750م) ازدادت أهمية البريد بسبب التغيرات السياسية فاهتموا به على أوسع نطاق، وكانوا أول من الحق أمر المخابرات بنظام البريد وصاحب<sup>1</sup> فنظموه تنظيماً دقيقاً، وأصبح للبريد ديوان خاص به في بغداد يتولى الإشراف على جميع طرق البريد ومحطاته ومنازلها ومسافاتها<sup>2</sup>، كما استخدمت دوابه في نقل الجيوش من مكان آخر<sup>3</sup>، كذلك توالت إصالة المعلومات عن الأوضاع الأمنية والعسكرية في أقاليم

<sup>1</sup> محمد بن جرير الطبرى، الأمم والملوك، القاهرة، دار المعرفة، د.ت، ج 8، ص 67؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضى، ط 2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995م، مج 5، ص 221.

<sup>2</sup> الطبرى، الأمم والملوك، ج 7، ص 465 / ج 8، ص 136؛ 162.

<sup>3</sup> الطبرى، الأمم والملوك، ج 6، ص 339 / ج 7، ص 70.

الدولة وثغورها، وما يجري فيها من حركات تمرد أو عصيان، وإيصال أخبار المعارك أولاً بأول.<sup>1</sup>

وبعد سيطرة العبيدين على مصر (358هـ / 968م) ومن بعدها دمشق ثم حلب (381هـ / 991م) اهتموا اهتماماً كبيراً بأمر البريد، فاستخدموه الحمام الزاجل<sup>2</sup> بشكل واسع، وبالغوا في استخدامه حتى افرودوا ديواناً وجرايد بآنسابه<sup>3</sup>، فاستخدموه كوسيلة للاتصال بين القاهرة ودمشق فكان بدمشق حمام من مصر، وبمصر حمام من دمشق<sup>4</sup>، وكان أهل فلسطين ينقلون الحمام من مدينة إلى أخرى، كي تحمل الرسائل في عودتها إلى المدينة التي كانت في السابق موطننا لها<sup>5</sup>، أما في شمال الشام فقد أهتم السلاجقة باقتناء الحمام الزاجل واستخدموه في نقل مكاتبهم، ولاسيما بين حلب والموصل<sup>6</sup>.

وفي عصر الزنكيين رتب النجابة، واعدتهم لهم النجبا<sup>7</sup>.

كما استخدموه الحمام الزاجل في نقل الأخبار بين دمشق وغيرها من المدن والقلاع التابعة لها<sup>8</sup>، وبنيت لها الأبراج في مختلف مدن الشام وعلى مسافات متباعدة، ورتب لها ولاتها وخصصت لها نفقاتها<sup>1</sup>.

<sup>1</sup>- عارف عبد الغني، نظم الاستخبارات عند العرب وال المسلمين، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1991، ص180.

<sup>2</sup>- الحمام الزاجل: وعرف أيضاً بحمام الرسائل أو حمام البطائق لحمله صغار الرسائل، وكانت تتعلق في جناح الطائر لحفظها من المطر، ولقوة الجناح، كما أنهما يربطها في الذنب. تقى الدين احمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار المعروفة بالخطط المقريزية، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1987، ج2، ص231. وبعد الحمام الزاجل من ابرز وسائل نقل البريد العسكري. خالد جاسم الجنابي، البريد العسكري في العصر العباسي" مجلة المؤرخ العربي" ، العدد: 35، السنة الرابعة عشر، 1988، ص156.

<sup>3</sup>- نبيل محمد عبد العزيز، الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، 1987، مجل22، ص43.

<sup>4</sup>- أحمد بن علي القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ج14، ص391.

<sup>5</sup>- فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلى، عمان، دار الشروق، 1990، ص 288.

<sup>6</sup>- عمر بن عبد العزيز بن أبي جودة ابن العديم، زيدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، 1954، ج2، ص117.

<sup>7</sup>- شهاب الدين أحمد بن يحيى العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1988، 268 - 269؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج14، ص417.

<sup>8</sup>- أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحقيق: قاسم السامرائي، الرياض، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، 1987م، ص54؛ هارشمان، بريد "دائرة المعارف الإسلامية"، بيروت، دار الكتاب اللبناني، د.ت، مجل3، ص610.

أما في العصر الأيوبي الذي تميز بطابعه الحربي نتيجة الظروف السياسية والعسكرية التي تمر بها بلاد الشام بصفة خاصة، والعالم الإسلامي بصفة عامة، حتم على سلاطين بي أيوب الاهتمام بالبريد العسكري، وعلى رأسهم السلطان الأيوبي صلاح الدين (ت: 589هـ / 1193م) الذي رتب البرد، واهتم بها وأنفق عليها، حتى أصبح مثلاً بارزاً يهتدى به؛ لما وصل إليه البريد العسكري في عصره، و Ashton بتفوقة على ما كان عند الصليبيين.<sup>2</sup> ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموضوع ما الأسباب التي دفعت مؤسس الدولة الأيوبية صلاح الدين الأيوبي للاهتمام بالبريد، وخاصة في بلاد الشام؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأن السلطان صلاح الدين الأيوبي قد أقسم في بناء دولة متaramية للأطراف؛ فحتم عليه ذلك معرفة أحوالها، كما كان على صراع مستمر مع الفرنج الذين يسيطرون على جزء كبير من الساحل الشامي، والذين تزداد أطماعهم يوماً بعد يوم في البلاد الإسلامية<sup>3</sup> من جهة ثانية، وبغية أن تصل إليه الأخبار ومستجدات الأحوال بأقصى سرعة وباستمرار، وما يجد من أنباء عن سير المعارك بين جيشه وأعدائهم من جهة ثالثة.<sup>4</sup>

ولأهمية البريد العسكري الأيوبي في الصراع الصليبي الإسلامي سيتناول الباحث هذا الموضوع من خلال وسائل نقله، والمتمثلة في الحمام الزاجل، ودواب البريد، والسباحين الغواصين المهرة.

يعد الحمام الزاجل من أبرز وسائل نقل البريد العسكري في هذه الفترة، وقد عني الأيوبيون به، وأتقنوا استخدامه، وتفننوا من خلاله في نقل الأخبار بشكل منظم، وخاصة بين الإدارة المركزية وعساكرها في تنقلها وترحالها في كثير من الأحيان.<sup>5</sup> فبنت له الأبراج

<sup>1</sup>- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب التوييري، نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد ضياء الدين الرئيس،

مراجعة: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م، ج 29، ص 255.

<sup>2</sup>- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العربي، بيروت، دار الثقافة، 1968م، ج 2، ص 671.

<sup>3</sup>- شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، مطبعة النيل، 1288هـ، ج 2، ص 22 - 23؛ نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، القاهرة، 1957م، ص 129.

<sup>4</sup>- أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص 23.

<sup>5</sup>- مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العمري العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، د. ت، ج 1، ص 363.

في مختلف مدن الشام، وعلى مسافات متباudeة، ورتب لها ولاتها، ورصدوا الأموال الطائلة لاقتنائه وللأنفاق عليه<sup>1</sup>.

ومع ازدياد الصراع الصليبي الإسلامي لم يجد صلاح الدين خيرا من الحمام الزاجل كوسيلة اتصال سريع؛ إذ كان الجيش الأيوبي يصاحب معه حمام الجهة التي ينوي الاتصال بها، أو حين طلب المعونة؛ كما حدث في عام (574هـ / 1178م) حين اجتمع الصليبيون وساروا نحو دمشق مع ملكهم، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه في جمع من العساكر وأمره إذا قاربهم أن يرسل إليه بخبره على جناح طائر كان معه<sup>2</sup>، مما شجع صلاح الدين على شن الغارات على أملاك الصليبيين في بلاد الشام ثم عاد إلى مصر (576هـ / 1180م)<sup>3</sup>.

وفي عام (577هـ / 1181م) شرع سلطان الشام ومصر في تنظيم خطوط بريدية عن طريق الحمام البطائقي<sup>4</sup> بينه وبين ولاته في البلاد، فمثلاً أوعز إلى ابن أخيه تقي الدين بأن يجعل حمام حماة في حلب، وحمام دمشق في حماة، وطلب من ناصر الدين محمد بن شيركوه بأن يجعل حمام دمشق في حمص وحمام حمص في حلب، وأوعز إلى ولده عز الدين بأن يجعل حمام بصرى في دمشق<sup>5</sup>...، وهذا دليل على أن السلطان صلاح الدين استخدم الحمام كوسيلة اتصال ونقل للأخبار بين أملاكه في البلاد الشامية.

وفي عام (584هـ / 1188م) توجه صلاح الدين إلى شمال الشام، واسترد بعض القلاع الخاضعة للصليبيين في تلك المنطقة ثم توجه صوب برزية وهي قلعة حصينة في غاية المنعة والقوة على متن جبل شاهق تحيط به الأودية من جميع الاتجاهات فاستولى عليها<sup>6</sup>، وعلى

<sup>1</sup>- التويري، نهاية الإرب، ج 29، ص 255.

<sup>2</sup>- محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في مهد صلاح الدين، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1406هـ، ص 187.

<sup>3</sup>- ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 147، 148، 152.

<sup>4</sup>- البطائقي: جمع بطاقة، وهي رسالة تكتب في ورق الطير، المعروف بذلك، وكانوا لا يكتبون في أولها بسملة وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين، ولا تكثر النعوت فيها، ولا يذكر حشو في الألفاظ، ولا يكتب إلا ب الكلام وزبته، ولابد أن يكتب سرح الطائر ورفيقه حتى إن تأخر احدهما ترقب حضوره، ولا يعمل للبطائق هامش، إلا إذا كانت ستسرح للسلطان من مكان بعيد، فيكتب لها عنوان حتى لا يفتحها كل وال تصل إليه، وإنما يكتب على ظهرها إنها وصلت إليه حتى تصل إلى السلطان مختومة. المقريزي، السلوك، ج 2، ص 231-232.

<sup>5</sup>- أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 22 - 23.

<sup>6</sup>- بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964م، ص 92. أبو شامة، الروضتين، ج 4، ص 32 - 33.

الرغم من ذلك، فإن صلاح الدين لم يرتق البريد في البلاد التي استردتها، بدليل أنه عندما وصلت الحملة الصليبية الثالثة إلى سواحل بلاد الشام كرد فعل لاسترداد بيت المقدس ومعظم مدن ساحل الشام، وتمكن هذه الحملة من إحكام الحصار حول مدينة عكا (585-1189م / 1191-587هـ) تذر الاتصال بين صلاح الدين وحامية المدينة، "ولكن الله لطف بال المسلمين، إذ كان في المعسكر من اتخذ حماماً تطوف على خيمته وينزل في منزلته، وعمل لها برجاً من خشب وهوادي من قصب، ويدرجهما على الطيران من بعد، وكان بعض المعسكر يقولون: ما هذا الولع بما لا ينفع، والوله بما لا ينفع، حتى جاءت نوبة عكا فنفعت، وشفت الغليل، وأتت بالكتب شارحة سارحة، ومنذ ذلك الوقت صار العسكري يخسون صاحب الطيور بالإطراء والمدح والثناء".<sup>1</sup>

وذكر بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين وقاضي عسكره قائلاً: "والكتب متواصلة من عكا ومنها إليها على أجنة الطيور".<sup>2</sup> وفي حوادث سنة (586هـ / 1190م) ذكر قائلاً: "وصل كتاب طائر في طي كتاب، وصل من محروسة حماة، قد طار به الطائر من محروسة حلب، يذكر فيه أن البرنس صاحب أنطاكيه - بوهمند الثالث - خرج بعسكره نحو القرى الإسلامية لشن الغارة عليها، فبصرت به العساكر... فكمنت الكمناء<sup>3</sup> وخرجوا عليه، فلم يشعر بهم إلا والسيف وقع فيهم...".<sup>4</sup> وما يؤكد دور البريد الطائر وقوته تنظيمه في هذه الفترة الحرجة، تواصل البريد العسكري على السلطان صلاح الدين الأيوبي من مختلف أنحاء البلاد.<sup>5</sup> ولهذا قيل: أنه لصلاح الدين "بريد واستخبارات اشتهرت بالتفوق على ما كان عند الصليبيين".<sup>6</sup>

<sup>1</sup>- أبو شامة، الروضتين، ج4، ص118.119؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدس، تحقيق: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، ص360.

<sup>2</sup>- بهاء الدين بن شداد، النواود السلطانية، ص131.

<sup>3</sup>- الكمناء: جمع كمين، والكمين جماعة تخرب بالقرب من طريق قوات العدو أو دورياته ثم تفاجئها بالهجوم عليها. محمد جمال الدين محفوظ، النظرية الإسلامية في بناء الروح المعنوية وإرادة القتال "سلسلة نظريات الإسلام العسكرية"، القاهرة، دار الاعتصام، 1984، ص40، هامش: (1).

<sup>4</sup>- بهاء الدين بن شداد، النواود السلطانية، ص143.

<sup>5</sup>- محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص187-188.

<sup>6</sup>- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص671.

وهذا دليل على ما ناله البريد العسكري من اهتمام في ظل مؤسس الدولة الأيوبية، إذ كان همزة الوصل بين مختلف المناطق الشامية ومركزها.

كما جاءت بطائق الحمام الزاجل تحمل تفاصيل الأخبار وبشائر النصر على الأعداء، عقب إنتهاء الحروب مثلاً حدث (574هـ / 1178م) عقب انتصار عز الدين فرخشاه على الصليبيين<sup>1</sup>.

وبعد أن قام صلاح الدين باسترداد بيت المقدس (583هـ / 1187م) أرسال الكتب مع الحمام متخلية عن صفة الإيجاز كما هو معروف في بطائق الحمام، إذ أسهبت في ذكر تفاصيل المهدنة التي وقعت بين المسلمين والصليبيين عقب هذا النصر. واستهلت كتب البشري بعبارة "سرح هذا الطائر ورفيقه في أول ساعة من نهار..."<sup>2</sup>. مما سبق يتبين أن البريد العسكري كان على اطلاع تام بمحاربات الأحداث في جميع أنحاء الدولة، ولنقل الأخبار التي تقتضي سرعة وصولها. كما كانت رسائل الحمام الزاجل تصل حامله على جناحها تفاصيل الأخبار وبشائر النصر.

وفي العام التالي توجه صلاح الدين إلى شمال الشام واسترد بعض القلاع الخاضعة للصليبيين في تلك المناطق "فطارت كتب البشائر وسرحت على جناح طائر"<sup>3</sup>.

وتفنن المسلمون في إخفاء أسرارهم، لكي لا يعلم بها عدوهم، فاستعملوا رموزاً خاصة بذلك تعرف بالشيفرة<sup>4</sup>،

تدل على أمور متقدمة عليها مقدماً بين الطرفين المتراسلين<sup>5</sup>.

<sup>1</sup>- أبو شامة، الروضتين، ج3، ص21؛ العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج3، تحقيق: مصطفى الحياري، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، 1987م، ج3، ص151.

<sup>2</sup>- كاتب مراكشي من القرن السادس الهجري، الاستبصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958م، ص106-107.

<sup>3</sup>- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص252.

<sup>4</sup>- الشيفرة: لغة اصطلاحية، تستخدم في نقل الرسائل في نطاق من السرية وذلك لمنع تسرب محتوياتها للغير والشيفرة السرية التي تستخدم في ثلاثة ميادين هامة، الأولى: في الرسائل الدبلوماسية والثانية: في الرسائل العسكرية إبان الحروب، والثالثة تشمل الجاسوسية". عبدالله مناصرة، الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1987م، ص150.

<sup>5</sup>- محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص188.

ويشير أبو شامة إلى أن القاضي الفاضل - وزير صلاح الدين - وصف الحمام الراجل بأنه ملائكة الملوك، ويقصد بذلك "أن نزولها من الجو على الملوك، يشبه نزول الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فرط ما فيه من الأمانة لا يتوهم من جهتها خيانة".<sup>1</sup> ولا يفوّت الباحث أن يشير أنه من بين ما أخذه الصليبيون عن المسلمين في فترة الحروب الصليبية ونقلوه إلى أوروبا كيفية تدريب الحمام واستخدامه في نقل الأخبار العسكرية.<sup>2</sup> وأولى الأيوبيون عنابة خاصة بدواب البريد، إذ برعوا في اختيار الهجن الأصيلة سريعة العدو، للاعتماد عليها في نقل الأخبار<sup>3</sup>، فكان النجاح يقطع المسافة من القاهرة في مصر إلى حلب في خمسة أيام<sup>4</sup>. والتي أقيمت لها المحطات على طول الطرق البرية.<sup>5</sup> ففي عام (577هـ / 1181م) انتهز الصليبيون فرصة الخلاف الذي ساد أرجاء الدولة، وقاموا بحصار مدينة حماة، إلا أن البريد البري قام بمهمة نقل الأخبار لصلاح الدين الأيوبى الذي تحرك على رأس جيشه لقتال الفرنجة.<sup>6</sup> وفي سنة (578هـ / 1182م) وعقب إنتهاء الحصار المفروض على الكرك من قبل السلطان صلاح الدين أتاه نجابون يبشرونوه بانتصار فرخشاه في غزوة دبورية.<sup>7</sup> وهكذا كان البريد العسكري في عصر صلاح الدين من الدقة والسرعة حتى إن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة بساعة.<sup>8</sup> ويبعد أن الأيوبيين قد ربّطوا البلاد الشامية بعضها ببعض عن طريق شبكة منظمة من مراكز دواب البريد حتى يتوصّل راكبه إلى حيث أراد، وربما استخدموا الخيول فضلاً عن

<sup>1</sup>- أبو شامة، الروضتين، ج2، ص232-231؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص360.

<sup>2</sup>- أمين توفيق الطيبى، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1984م، ص112.

<sup>3</sup>- القلقشندى، صبح الأعشى، ج14، ص370.

<sup>4</sup>- العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص412.

<sup>5</sup>- ابن واصل، مفرج الكروب في أخباربني أيوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، سعيد عاشور، القاهرة، 1947م، ج3، ص275.

<sup>6</sup>- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1968م، مج.5، ص642؛ نظير سعداوي، التاريخ الحربي، ص113.

<sup>7</sup>- محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص175.

<sup>8</sup>- محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص176.

الهجن لذلك، وإن كانت المعلومات والتفاصيل عن ذلك قليلة جداً وغير واضحة من خلال المصادر الأيوبيّة.

وتم استخدام وسيلة ثالثة أثناء الحصار البحري للمدن والواقع البحري، إذ كان الأيوبيون يستخدمونها لنقل الكتب والأخبار وغيرها أثناء احتدام المعارك وعندما يشتد الحصار، فيخترقون الحصار البحري سباحة حتى يصلوا إلى بر الأمان حاملين على ظهورهم وأوساطهم الكتب والأموال، ثم يعودون بالأخبار.

بيد أن الأيوبيين أشهر من استخدم هذه الوسيلة في نقل البريد إذ كان صلاح الدين يختار من العوّامين من اشتهر بمهارة السباحة يحملهم المال والكتب يربطونها على أوساطهم ثم يعومون بها ويعودون إلى قائدتهم بأجوبة الرسائل وأخبار المدينة وأهلها وجندوها، ف بواسطتهم كانت الكتب والأخبار والأموال تصل إلى أهالي عكا، أثناء حصارها، وفي ذلك يقول العmad الأصفهاني<sup>1</sup>: "وأما عكا فالكتب متعددة إليها ومنها مع السباح...".

ويعتبر عيسى العوام من أشهر وأجراً السباحين الذين كانوا يخترقون الحصار البحري للصليبيين عدة مرات، ولكنه ذات مرة غرق في البحر وهو يحمل المال والكتب لأهل عكا المحاصرين، فقدت الأمواج بجثمانه إلى الشاطئ حيث تلقاء أبناءها، وأخذوا ما كان يحمل وذلك عام (586هـ / 1190م)، وقد فطن السلطان صلاح الدين إلى هلاكه عندما تأخر هبوط الحمام مبشرًا بوصوله كما جرت العادة؛ لذلك قيل فيه: "فما روى من أدى الأمانة في حال حياته، وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل"<sup>2</sup>.

وتعد هذه الحادثة من أشهر قصص البطولة في البريد العسكري الأيوبي، كما تدل على مدى اهتمام الأيوبيين بالبريد العسكري، لما له من أهمية كبرى في الحرب الأيوبيّة. ولحرص صلاح الدين على سلامته العوامين، ومعرفة أحوالهم وتحركاتهم، أمرهم بأن يكتابوه على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سراً، وذلك بكتابه رموز معينة لا يفهمها العدو إذا وقع بريد الحمام في يده<sup>3</sup>.

<sup>1</sup>- الفتح القسي، ص414.

<sup>2</sup>- ابن شداد، النوادر السلطانية، ص135 - 136.

<sup>3</sup>- العmad الأصفهاني، الفتح القسي، ص360.

وفطن الفرنجة لهؤلاء السباحين وحاولوا أن يفسدوا على المسلمين طريقتهم في استطلاع أخبار المدينة، ويقضوا عليهم فنصبوا الشباك في البحر، إذا خرج سباح وقع فيها، فقبض على البعض بهذه الطريقة وتخوف البعض الآخر فامتنعوا عن السباحة وأحجموا عن المخاطرة بأرواحهم<sup>1</sup>.

يلمس من خلال تبع المصادر الأيوبية أن للبريد العسكري الأيوبي الدور الكبير والفعال في الانتصارات الحربية التي حققها الأيوبيون على أعدائهم، حيث وقع على عاتقه نقل أخبار تحركاتهم إلى مقر السلطة، وهو ما حقق لهم المبادرة وإعلان الطوارئ لهاجمة خصومهم ومباغتهم وتحقيق النصر المؤزر عليهم، فنجحوا في حفظ دولتهم وتأمين حدودها.

## الخاتمة

أدى اهتمام الإدارة الأيوبية دوراً كبيراً في الاهتمام بالبريد العسكري واستمراريته؛ ليتمكنوا من معرفة مدى قوة أعدائهم، ورصد تحركاتهم أولاً بأول. ومعرفة أخبار التغور والمناطق الحدودية وغيرها، لذلك شكل عصب الحياة في الإدارة العسكرية، واسهم إسهاماً واضحاً وفعلاً في النجاحات والانتصارات التي حققها الأيوبيون على أعدائهم. ويأتي في مقدمة البريد العسكري دور الحمام في تأمين الاتصالات بين المناطق وقطاعات الجيش وقلاعه. ويبدو أنه تخطى من حيث الأهمية الوسائل البريدية الأخرى لسرعته أولاً، ولقلة تكلفته ثانياً.

وينبغي التبيّن إلى أن الأيوبيين استخدمو الحمام الزاجل ودواب البريد والسباحين كوسائل ثلاث لنقل الكتب والأخبار بنجاح منقطع النظير، وذلك بحكم الظروف السياسية والعسكرية والأمنية التي شهدتها بلاد الشام في تلك الفترة الحرجة من الزمن.

<sup>1</sup>. جمال الدين الشيال، دراسات في التاريخ الإسلامي، بور سعيد، مكتبة الثقافة الإسلامية، 2000م، ص 75.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً/ المصادر:

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت: 630هـ / 1232م).
- الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995م.
- ❖ ابن خلدون، عبد الرحمن (ت: 808هـ / 1406م).
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1968م.
- ❖ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت: 665هـ / 1266م).
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، مطبعة النيل، 1288هـ.
- ابن شداد، بهاء الدين (ت: 632هـ / 1234م).
- النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964م.
- ❖ الطبرى، محمد بن جرير (ت: 310هـ / 922م).
- تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، دار المعارف، د. ت.
- ابن العديم، عمر بن عبد العزيز بن أبي جودة (ت: 660هـ / 1261م).
- زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج2، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، 1954م.
- العليمي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العمري (ت: 927هـ / 1521م).
- الأننس الجليل بتاريخ القدس والخليل، د. م، د. ت.
- ❖ العماد الأصفهاني، أبو عبد الله محمد (ت: 597هـ / 1201م).
- البرق الشامي، ج3، تحقيق: مصطفى الحياري، عمان، مؤسسة عبدالحميد شومان، 1987م.
- الفتح القسي في الفتح القدسى، تحقيق: محمد محمود صبح، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1321هـ.
- ❖ العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت: 749هـ / 1349م).
- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1988م.
- ❖ القلقشندى، أحمد بن علي (ت: 821هـ / 1418م).

- صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
- كاتب مراكشي من القرن السادس الهجري.
  - الاستبصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958م.
  - المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت: 854 هـ / 1441م).
  - الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار المعروفة بالخطط المقريزية، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1987م.
  - ❖ ابن منقد، أسامة بن مرشد بن علي (ت: 584 هـ / 1192م).
  - كتاب الاعتبار، تحقيق: قاسم السامرائي، الرياض، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، 1987م.
  - النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت: 733 هـ / 1332م).
  - نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد ضياء الدين الرئيس، مراجعة: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.
  - ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت: 697 هـ / 1297م).
  - مفرج الكروب في أخباربني أيوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، سعيد عاشور، القاهرة، 1947م.
- ثانياً/ المراجع:**
- ❖ الجنابي، خالد جاسم.
  - البريد العسكري في العصر العباسي" مجلة المؤرخ العربي" ، العدد: 35، السنة الرابعة عشر، 1988م.
  - ❖ حسين، محسن محمد.
  - الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1406هـ.
  - ❖ رنسيمان، ستيفن.
  - تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العربي، بيروت، دار الثقافة، 1968م.
  - ❖ سعداوي، نظير.
  - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، القاهرة، 1957م.
  - ❖ الشاتري، فوشيه.

- تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلبي، عمان، دار الشروق، 1990م.
  - ❖ الشيال، جمال الدين.
- دراسات في التاريخ الإسلامي، بورسعيد، مكتبة الثقافة الإسلامية، 2000م.
  - ❖ الطيبى، أمين توفيق.
- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1984م.
  - ❖ عبد العزيز، نبيل محمد.
- الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، 1987م.
  - ❖ عبد الغنى، عارف.
- نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1991م.
  - ❖ محفوظ، محمد جمال الدين.
- النظرية الإسلامية في بناء الروح المعنوية وإرادة القتال "سلسلة نظريات الإسلام العسكرية"، القاهرة، دار الاعتصام، 1984م.
  - ❖ مناصرة، عبدالله.
- الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1987م.
  - ❖ هارشان.
- بريد "دائرة المعارف الإسلامية"، بيروت، دار الكتاب اللبناني، د. ت.